جامعة محمد بوضياف المسيلة
كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية

محاضرات في التيارات الصوفية في الغرب الإسلامي
ماستر2 تاريخ الغرب الإسلامي

التصوف ، اصوله و اتجاهاته

الاستاذ الدكتور كمال الفيلالي

التعريف :

يعتبر التصوف من العلوم المعقدة، التي احتل فترات من التاريخ الطويل المدى بمتغيرات كثيرة وحركية كبيرة في المجالين الجغرافي و الزمني و في المنهاج و التوجه ، خلاف المذاهب الدينية الإسلامية فهو ليس من التيارات الثابتة في البعد و الطريقة والمغزى.

التصوف كاعتقاد ديني يقوم على الزهد و الاعراض عن الدنيا و التأمل في الخلائق، ظهر منذ التاريخ القديم ، كتجربة ذاتية باطنية محضة، ارتبطت بالدين ، سوآءا كان دينا طبيعيا او توحيديا او فلسفيا ذات صبغة روحانية تبحث عن السمو و الكمال. فعرفها الهندوس كسلوك وأدأب و فلسفة روحانية، ثم عُرف كرهبنة في الديانة النصرانية. ام بالنسبة للإسلام فظهر كتصور و سلوك ثم كمنهاج لتزكية النفس و إصلاحها للسمو بالروح من خلال تجربة حسية ذاتية. قال الامام الجنيد المعروف بسيد الطائفة لجمعه بيه العقل و الروح و بين الشريعة و الحقيقة (ت 297) : «ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، لكن عن الجوع وترك الدنيا، وقطع المألوفات والمستحسنات». فالتصوف يطمح في نيل الحقائق الربانية بترك الدنياويات ، أي ترك ما في أيدي الخلائق و البحث ما في ايدي الله. عرف قشيري(ت465 ه) «التصوف ترك كل حظ للنفس». و قال سهل بن عبد الله التستري (ه283ت): «الصوفي من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، وانقطع إلى الله من البشر، واستوى عنده الذهب والمدر» .و قد ارتبط التصوف منذ البداية بالكتاب و السنة ،اذ قال العالم الفقيه امام الطائفة جنيد : طريقنا مقيد بالكتاب والسنة ، فمن لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه لايُقتدي به.»

اصل التصوف في الإسلام :

يعتبر بعض رجال الدين والمؤرخين القدماء مثل الطبري و ابن الاثير و ابن خلدون ان التصوف قديم قدم الإسلام حيث كان يعرف اهل الصف بمسجد الرسول (ص) بالمتصوفة. فكان في البداية كسلوك ديني و تجربة ذاتية تخص الفرد وخالقه. يحاول العابد اتخاذه كطريق للتقرب من الله من خلال الزهد و الاعراض عن الدنيا و الخلاص لروحه. هذا ما جعل البعض ينظر اليه كنمط حياة وفلسفة و فكر عقائدي ربطه البعض مثل حسن

.منذ البداية ارتبط التصوف بالإحسان و «الاحسان هو ان تعبد الله كأنك تراه و ان لم تره فهو يراك» و بالمثل العليا و مكارم لأخلاق و الزهد في الدنيا و التقشف في الحياة. فعرفه أبو الحسين أحمد بن محمد النوري، المعروف بـ «ابن البغوي»(ت295 ه/م907)، أحد علماء السنة والجماعة و اعلام التصوف السني، في القرن الثالث الهجري ، بانه:» ليس رسما و لا علما و لكنه خلقا». و وصف جلال الدين الرومي (604/672ه)التصوف بالاخلاق العليا «فمن زادت اخلاقه زاد تصوفه». فالتصوف اذن يقوم أساسا على الاخلاق بلزوم الآداب الربانية و مراقبة الأحوال النفسية. فهو يدخل في نطاق الرسالة المحمدية» انما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق».

أصله نسبته :

اختلف العلماء في الأصل اللغوي للتصوف : فمنهم من نسبه الى الصفوة صفوة القلب، و منهم من نسبه الى اهل الصف في مسجد الرسول (ص)، و لكن المتفق عليه هو نسبته الى اللباس الغليظ من الصوف. وفي تعريفه اللغوي لمعنى التصوف يقول القشيري(986/1072ه)، وهو أحد كبار منظري التصوف: " لبس الصوف تصوف و لبس القميص تقمص« أي تقمص في شخصه. تجلى معنى الصوفي من لبس المرقعات و اللباس الخشن من الصوف في البصرة و الكوفي تقشفا و زهدا عن لبس الحرير الذي شاع بين النبلاء في العهد العباسي. و في القرن الثالث الهجري، ظهر في الاندلس في شكل لباس رسمي فتن الزهاد و العلماء و حتى بعض القضاة. يدعي البعض ان عبد الرحمان الداخل مؤسسة امارة قرطبة (ت788ه) كان يلبس الصوف تظاهرا بالبساطة و التقشف. في ارتقائه الى الزي الأكثر تداولا يعني (المودا) Mode، يذكر الامام الحافظ أبو نصر احمد بن محمد بن الحسين المعروف بالكلابادي(384ه/935م) في «التعرف لمذهب اهل التصوف « ان قاضي قرطبة ، سعيد بن سليمان (المتوفى سنة 240 ه) كان في جلسات المحكمة القضائية كان يضع على راسه شعرا مستعارا من الصوف الأبيض و يرتدي جبة صوف بيضاء. و من خلال مقاربة و مقارنة شخصية، يبدو ان هذا التقليد انتقل الى بريطانيا في القرن الرابع عشر الميلادي، حيث اصبح اللوردات في مجلس الشيوخ يضعون على رؤوسهم غضارة صوف بيضاء.

و لم يكن كل الصوفية يرتدون الصوف، ففي بغداد مثلا التي كانت مركز كل التغييرات الاجتماعية ، حيث أصبحت ظاهرة التصُّوف ظاهرة إسلامية، كان الحلاج(309ه)، كثير العكوف و السياحة ، متقلب في مظهره و في ملبسه، و هو محل جدل كبير خاصة فيما يتعلق بمسالة التوحيد و الحلول، لا يرتدي الصوف. اما الشيخ جنود (298ه) الذي يبدو اكثر التزاما بالقران و السنة، فكان يرتدي لباس من الصوف و أحيانا مرقعة. في القرن الثاني عشر الغريب ان جمال الدين القرشي البكري المعروف ابن الجوزي(597ه) يسمي الزهاد بالعباد لا بالصوفية و يوسم الزاهد بالعابد « ذكر المصطفين من عبد المغرب (كذا)»,

التصوف نهج في العبادة :

على الرغم من اختلاف المدارس في اصل كلمة صوفي، إلا انها تتفق مقاصدها في مفهوم الصفاء و إصلاح القلب، من خلال التحلي بالأخلاق و الإخلاص لوجه الله بالصبر و التسليم. فهي عبادة هدفها تزكية النفس وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية. حيث اعتبر الصوفية أمثال جنيد التصوف مذهبا فيما اعتبره علماء الإسلام والمستشرقون كفكر أساسيٌ في التراث الإسلامي و اعلى طبقة في الاسلام. حيث يقوم الاسلام على الأركان الخمسة و الايمان هو الأمان بالله و ملائكته و كتبه و رسوله و اليوم الاخر اما الاحسان هو ان تسلم نفسك لله، و ان تعبده و كأنك تراه...»

والاهتمام بالتصوف كعلم قديمٌ في تاريخ الاسلام، تناوله الكثير من العلماء كالطوسي ، والكلابادي ، و القشيري و الغزالي و ابن الجوزي و عبد الوهاب الشعراني وغيرهم من كبار المتصوفة و شيوخ الطرق ، كما ألف فيه الفلاسفة كابن سيناء و الغزالي و ابن رشد و الصهروردي، و ابن عربي وابن خلدون و الأمير عبد القادر الاكبري ، وتجادل فيه الفقهاء و علماء الكلام ، إضافةً إلى جهود المستشرقين المعتبرة في هذا المجال كماسينيانLouis Massignon المولع "بالحلاج القتيل" و فنسان منتاي و Louis Gardet وVincent Monteil و حاليا Eric Geoffroy المتصوف الفرنسي ، لم يتفق هؤلاء على رأيٍ واحدٍ سواء تعلق الأمر بحدوده أو أصوله فاختلفت الآراء حوله. الا انه يتفقون انه ليس له علاقة بالرهبنة المسيحية لكن بعض فلاسفة التصوف تأثروا بالفلسفة الاغريقية مثل الغزالي الذي مر بمرحلة كبيرة بالشك و ابن عربي.

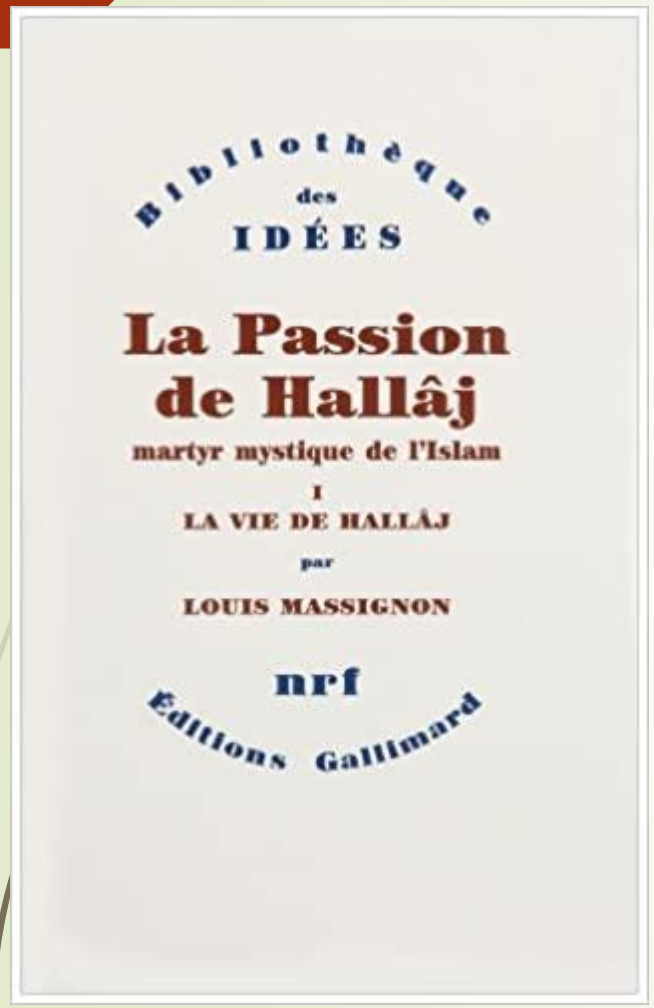

اصل التصوف كنهج ديني : من الزهد الى التصوف.

في البداية ظهر التصوف في شكل أحوال دينية و روحانية يبحث صاحبها عن المنازل و المقامات و البعض الاخر عن الوصول الى الخالك من خلال التامل و الاعتكاف و البعض الاخر للحلول في الذات الاعظم (و هذه الطريقة اتهمها البعض بالشرك). و في مرحلة الزهد لم تكون معالم التصوف واضحة فكان لكل واحد طريقته و تجربته في السمو و البحث عن المقامات. كما انتشرت بعض الأفعال الغريبة و بعض الشطحات المبهمة في بعض الأوساط الشعبية.

أول ما نشأ التصوف كطريق واضح المعالم بالبصرة، يقال وأول من بنى ديرة التصوف بعض أصحاب الحسن البصري رحمه الله (110ه).

عرف بعضهم التصوف "أنه الدخول في كل خلق سني، والخروج عن كل خلق دُني. وقيل هو الالتزام في العبادة و احترام المواقيت، على أن يكون العابد او الناسك مسلما روحه الى الله. فالصوفية أكثر التزاما بالوقت في نطاق التوحيد و البحث عن الذات الوجود. منذ القرن الثالث الهجري حاول شيوخ الصوفية المحدثين ضبط التصوف بالقران و تأطيره بالسنة ، باعتبارهما مصدري العقيدة وهما اساس الاستدلال الوحيدين.

فسارع منظري التصوف الأوائل، أمثال قشيري و أبو القاسم الجنيد و الغزالي و السهر واردي تقييد التصوف بأصول الكتاب والسنة و زندقة كل من خرج من الطريق المحمدي.

اهم مراحل التصوف:

يصف اللبناني الاب جورج قنواتي George Anwati القرون الثلاثي الاول بالصراع من اجل البقاء. جميع المؤرخون يتفقون على ان التصوف نشأ وترعرع في العراق، حيث برزت اسماء كبرى: رابعة العدوية(100-180ه)، معروف المعروفة بالعزف و الغناء ، السري السقطي، الجنيد البغدادي، وغيرهم . ولكن اختلفت آراء الباحثين حول الكيفية التي بدأ بها التصوف فى المشرق الأوسط، فالبعض يعتبره امتداد طبيعي لعقيدة للأفكار الغنوسطية و الزهد (وحدة الوجود العرفانية و البحث عن الكمال من خلال الروح) التي بدأت تنتشر في الشرق الاوسط انطلاقا من الشرق الادنى، بالذات في بلاد الفرس ثم العراق والشام ومصر، منذ مطلع القرن الثاني.

تطور الزهد في الكوفة والبصرة منذ القرن الثاني للهجرة على أيدي كبار الزهاد أمثال: إبراهيم بن أدهم، مالك بن دينار، وبشر الحافي، ورابعة العدوية، وعبد الواحد بن زيد....الخ اصبحت تقام على اعالي الجبال مغارات و خلوات للانقطاع عن العلق و التأمل في الخالق.

ففي القرنين ا الثلاثة الاولى كان الزهد من اجل العبادة والتقرب من الله.

- G. C Anawati et louis Gardet , Mystique musulmane, Lib. Philosophique, Paris -

دعائم التصوف :

اتخذ الصوفية الزهد وسيلة وتصفية القلوب خيارا و الاحسان للرقي بالنفس الى مقامات السمو هدفا. قال سهل بن عبدالله التستري(818ه) :مذهب الصوفية مبني على ثلاث الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، في الأخلاق والأفعال، والأكل من الحلال، والنية في العمل و المقصد.

أما العقائد و الاتجاهات فقد اختلفت بهم السبل فيها، ولا سيما بين صوفية العراق الأوائل، أمثال إبراهيم بن أدهم، والجنيد، وبشر الحافي، أمثال الحلاج وابن عربي والفارابي وابن سبعين وغيرهم، و المصرين أمثال دي النون. فالصوفية متفقون في الاسم مختلفون في الجوهر في كثير من العقائد والأفكار، فالعبرة بالمقاصد والمعاني لا بالألفاظ والمباني فهم كلهم متفقون على المقامات و السمو بالروح عن طريق الذكر و العبادة في اطار الطريق المحمدي.

فالتصوف وفق الرؤية الإسلامية ليست مذهبًا، لكن الصوفية يعتبرونه أحد أركان الدين الثلاثة: الإسلام، الإيمان، الإحسان ، فمثلما اهتم الفقه بتعاليم شريعة الإسلام، وعلم العقيدة بالإيمان، فإن التصوف اهتم بتحقيق بالإحسان و قوله تعالى : «أجزاء الاحسان الا الاحسان « مكارم الاخلاق. و هو هدف الرسالة المحمدية « انما بعثت للإتمام مل مكارم الاخلاق». وهو منهج أو طريق يسلكه العبد للوصول إلى الله، أي الوصول إلى معرفته والعلم به، وذلك عن طريق الجهاد و الذكر" وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. اعتبره العلماء ه و رده البعض و من اهم المتكلمين في التصوف السراج الطوسي (توفي 378 هـ / 988 م) الكلاباذي (ت384 هـ) قشيري (465ه) الذي يعتبره البعض منظر التصوف. فألفوا فيه الفلاسفة كابن سيناء ابن رشد و الغزالي و ابن خلدون. و كتب هؤلاء الكثيرة يبين فيها اصوله وفروعه وقواعده، ومن أشهرمصادر التصوف: الرسالة القشيرية للإمام القشيري، قواعد التصوف ، للشيخ احمد الزروق (846 هـ - 899 هـ) ، و «احياء علوم الدين « للإمام الغزالي، و السهر وردي «عوارف المعارف»، بالكلابادي،» التعرف لمذهب اهل التصوف» .....‘

في القرون الثلاثة الاولى كان التصوف من اجل العبادة في شكل زهد و ورع يقوم ا على الصبر و المجاهدة ضد النزاعات السلبية للنفس وعلى العزلة التامة الاعتكاف و التأمل في صفات الله الخالق من خلال الذكر و التركيز على القلب. يقول ابن عطاء الله السكندري (658 هـ- 709 هـ) : «... والذِّكر تختلف أنواعه وتتعدد، والمذكور واحد لا يتعدد ولا يتحدد..».ويقول: ... ورُوي أن أبا القاسم الجنيد رحمه الله تعالى قال لبعض خواص أصحابه: إن اسم الله الأعظم هو «هو»... وذُكر أن أهل المعرفة في هذا الاسم على أربعة أصناف أيضًا: فعارف قال: «الله»، وعارف قال: «هو»، وعارف قال: «أنا»، وعارف بهت. ويقول ابن عربي:

فأغلِق بابك دون الناس، وكذلك باب بيتك بينك وبين أهلك، واشتغل بذكر من الأذكار، وأعلاها الاسم، وهو قولك: «الله الله»...

.يمارس الصوفي الذكر كعنصر أساسي في ممارسة التصوف للتخلص من الغفلة و النسيان بدوام الحضور حضور القلب في العبادة. يقول ذو النون المصري (179 هـ -245 ه) و هو من اعلام النبلاء المتصوفة : من ذكر الله على الحقيقة نسي في جلب ذكره كل شيء و حفظ الله عليه كل شيء«.

يختلف الذكر عن المناجاة بحيث ان المناجاة التي اصلها من ناجى أي الدعاء و الكلام الى الله فهو عبادة و سؤال الى الله و المناجاة خلاف الذكر تكون سرا. و هي ظاهرة عامة في الإسلام عند الطوائف و المذاهب من اهل السنة و غيرها. فالله منجي الهالكين : قوله تعالى **فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ و كذلك ننجي المؤمنين" .**

التصوف بين الشريعة و الحقيقة :

يصنف أبو حامد الغزالي(420ه) الصوفين من اهل الحقيقة الطالبين أو بالحق في نطاق الشريعة، فلا شريعة بلا حقيقية و لا حقيقة بدون شريعة.شريعة تلزم العامة، وحقيقة تلزم الخاصة، فالشريعة تهتم بعلوم الظاهر، والحقيقة هي ربانية من علوم الباطن. فالعلم الظاهر مصدره الكتاب والسنة، أما علم الحقيقة فمصدره الالهام و الاحساس. الشريعة امر بالتزام بنظام اخلاقي، و الحقيقة التسامي و الرقي في المقامات العليا. فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة ناجعة و كل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فهي تيه في عالم ميتافيزيقي. فالشريعة جاءت بتكليف الخلق و الحقيقة انوار في الكشف عن الحق.

و قد نبذ المتصوفة المحدثون و الملتزمون الزهد خارج اطار العقيدة المحمدية. كما عارض أبو حامد الغزالي الزهاد الذين يسعون للحلول من خلال الرياضة و الشطحات التي اعرفها بانها فيض عن سريرة الإسلام على طريق الهندوس و عُباد الطبيعة. و هي بدعة التصقت بالزهد الإسلامي بعد انتشاره في الشرق الادنى. حيث قال: " اعلم أن ميل البعض إلى الزهد من غير دراسة علم و لا تحصيل و قدموا المجاهدات بمحو الصفات المذمومة، كأن ينقطع الإنسان ، ويخلو بنفسه في خلوة ، ولا يقرن اعتكافه بالقرآن و لا حديثا و بالتأمل في خلقه، و يقضي وقته في الرياضة يذكر : "الله الله الله" بغية الوصول الى حال بتحريك لسانه.

و معنى الحلول هو أن الله حالٌّ في مخلوقاته فلا انفصال بين الخالق والمخلوق، وليس في الوجود إلا الله. و هذا ما يعتقده الفيلسوف سبينوزا حين يقول ان العالم هو سبب و جوده Le monde est la cause de lui-même أي وحدة الوجود.

الصراع بين الشريعة والحقيقة:

في القرن الثالث بعد الحسن البصري، ظهر معارضين للمتصوفة و الزهاد حيث بدأت محاربة اهل الشريعة لأهل الحقيقة. تعرض بعض المتصوف للسجن و المتابعة و القتل أمثال دو النون المصري و سهل التستري و احمد بن محمد البغوي النوري ت(295ه). و في سنة 309 حكم الحلاج و اصبح يعرف بالمقتول بعد ان قتل و احرق و نثر رماده في نهر الفراث. في القرن الرابع الهجري عرف عصره الذهبي للأدب الصوفي و ظهور كتاب في الآداب الصوفي. و في القرن الخامس الهجري اصبح التصوف ظاهرة مدنية يقول Louis Gardet اصبح له حق المدينة. بفضل ظهور فلاسفة مثل أبو حامد الغزالي حيث أي اصبح يمارس كاتجاه و سلوك أخلاقي فلسفي و روحي يمارس في اطار العقيدة الاسلامية.

و ظهور كبار الفلاسفة و الادباء مثل ابن الفارض و ابن عربي ، جلال الدين الرومي، ابن سبعين (614-669ه)أبو مدين شعيب (509-594ه) أبو الحسن الشاذلي (571-656ه) و أبو العباس المرسي (616ه)ابن عطاء الإسكندراني(658-709ه). اللذان انبثقت عنهما اول مدرسة صوفية في العالم الإسلامي وفي القرن الثامن عرف التصوف اوج ازدهاره في الاندلس.

المصادر :

- احمد بن عبد الرحمان المقدسي ، طبقات الصوفية مختصر منهاج القاصدين، بيروت 2002
- جمال الدين بن الفرج المعروف بابن الجوزية ، صفوة الصفوة ، المكتبة العربية ، 2012
- أبو بكر محمد الكلاباذي ، التعرف لمذهب أهل التصوف، الناشر: مكتبة الخانجي-القاهرة
- عبد الوهاب الشعراني، الانوار القدسية في معرفة القواعد الصوفية، مكتبة المعارف بيروت، 1988
- الإمام عبد الرؤوف المُناوي الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية ، تحقيق اذيب جادر، دار صادر لبنان.
- ب- المراجع:
- جورج متري عبد الوهاب ، معجم مصطلحات الصوفي ، مكتبة لبنان، 1993
- حسين مروة، النزاعات المادية في الفلسفة الإسلامية، ط3 ، 1980
- Kalabadhi, Traité du soufisme, Sindbad, Paaris1981
- - G. C Anawati et louis Gardet , Mystique musulmane, Lib. Philosophique, Paris .
- -Cheikh Bouamran et Louis Gardet, Panorama de la pensée islamique, Sindbad , Paris 1984--Alfred Bel, les confrérie religieuse musulmanes ,
- - Kamel Filali , l'Algérie mystique, Publisud , Paris 2003
- - Frederick de Young , Bernd Radtke et (kamel Filali), Mysticism contested , Brill, Leiden , Boston 1999
- - Louis Rinn, Marabouts et Khouan , Adolph Jordan 1884
- - Emile Dermenghem. — Vies des saints musulmans. Nouvelle édition revue -et continuée, Alger, éditions Baconnier, s. d. ; in-12 de 418 p.
- - Xavier Coppolani , Les confréries religieuses musulmanes, Année 1898

كتب و اسهامات الأستاذ فيلالي كمال في و الحركة الصوفية و المرابطية

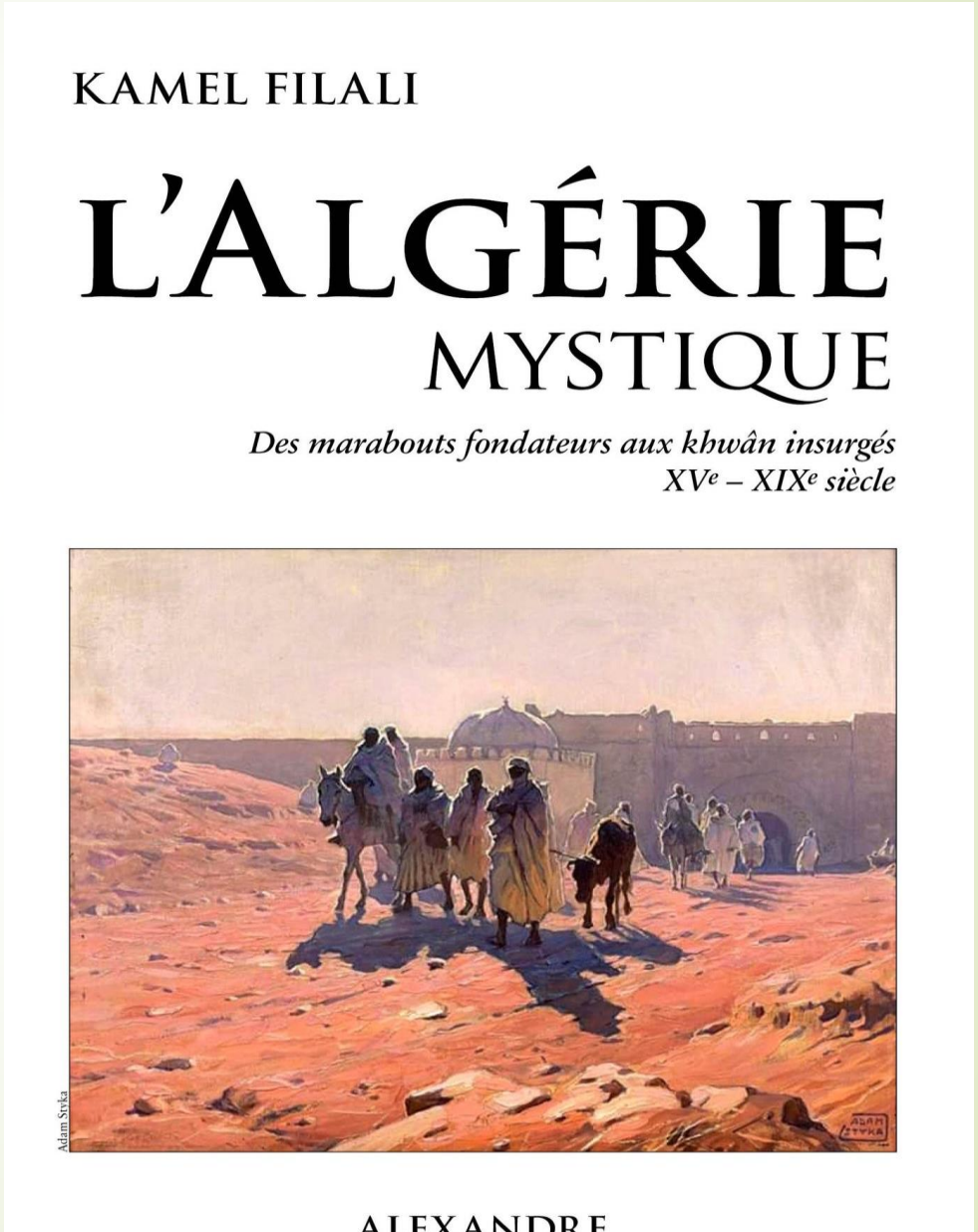

فتح المجيد
مؤسسة المختار للنشر والتوزيع
دار الكتب العلمية
إتحاف الأكابر
الشيخ عبد المجيد بن طه الدبيبي الزعبي
دار ابن حزم
عمدة المريد الصادق
الشيخ أحمد زروق
الأمير عبد القادر الحسني الجزائري
المتوفى عام 1300هـ- 1882م
المواقف
في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف
الجزء الأول
الجزء الثاني
أخبار الصوفية والزهاد
دار المسيرة

محمد بن عميرة
صفة الصفوة
الثاني
طبقات الحفاظ
للحافظ
جلال الدين عبد الرحمن
السيوطي
بتحقيق
د. علي محمد عمر
السهروردي
عوارف المعارف
فتح المجيد

البروفيسور كمال الفيلالي
http://www.kml-filali